وكان كل ما يتمناه كوربسكي أن يوطأ ايڤان ويزدرى وأن تصير ارادته في روسيا الى العدم . وقد كتب له القيصر : « لو انك لم تفصلني عن زوجتي لما كان كل هؤلاء الضحايا » . وإنه لمن المثير للفضول أن نرى ايڤان بعد كل هذه المغامرات فيما عقده من زيجات لا يزال يتحسر على فقدانه اناستاسيا . هنا نجد ايڤان الكهل الذي لا تنعقد أفكاره على ميدان المعركة كما لم تنعقد على الماضي . فيما مضى ، خلال حبه الأول ، وقبل أن تنثلم حياته كان سعيدا . وفي سنه السابع والأربعين ورغم انتصاراته على أعدائه ونجاحاته الكبيرة لم يكن إلا عجوزا متوحدا وأحيانا تعذبه تبكيتات الضمير .

كان متوحدا معذب الضمير ولكنه ما يزال ميالا الى الدعارة والفجور؛ فالنار الحمراء لم تكن قد انطفأت فيه بعد . في فيندن كان يوجد الكثير من اللهيب . وكانت قوته لا يدركها الحساب ، وهي لا تزال قادرة على الانفجار في كل لحظة لتحرق الرجال والنساء ، إلا أن كبرياء صموده وخصاله الرائعة عندما يمنح نعماءه لأحد ، وحماسته الدائمة في صلواته، كل ذلك لم يكن بامكانه أن يخمد هذه النار . ولا شك أنه كان يعرف عندما كتب الى كوربسكي باعتباره ــ أي ايڤان ــ المفضل والمصطفى من الله انه كان قادرا على تعذيب الأبرياء وايصالهم الى هاوية الموت بلا تسويغ ولا تمهيد .

في نهاية الخريف كان وصول إيڤان الى الكسندروف . ولكن عام ١٥٧٧ لم ينقض بدون سورة جديدة من الغضب القاتل . وكانت رسالته الى كوربسكي وهذا التذكر الذي قام في نفسه للماضي جعلاه يعود الى الزمن الذي كان فيه مشرفا على الموت ونبلاؤه يتآمرون عليه وعلى ابنه وزوجته اناستاسيا ويريدون أن يستبدلوا به ابن عمه الأمير فلاديمير اندرييفتش . وقد عوقب فلاديمير على ذلك كما عوقب معظم الناس . وهلكت كل عائلة أرداتشيف وعائلات الخونة وصودرت أملاكهم . ولكن بقي منهم عجوز ربما كان الجندي الأكثر بطولة والأكثر كفاءة في الجيش هو الأمير ميشيل فوروتنسكي الذي يعود إليه الفضل في أول حملة